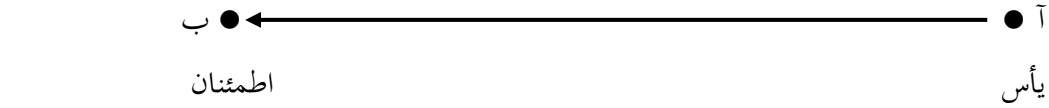
المحنـــــة

محاولة لدراسة سننية . .(٢)

الأخ د. خالص جلبي

إنّ المحنة يجب أن تكون كمنبه مناسب أو شرط تحدي (ملائم) فإن هذا يخلق الوضع النفسي المناســب للحركــة وهنا سوف أورد قانوناً نفسيا ..

قانون نفسي : حركة الإنسان تتم ضمن توتر معين هو ما بين اليأس والاطمئنان ، إنّ الإنسان يتحرك في الحيــاة بدءاً من أبسط التصرفات إلى أعقدها محكوماً بهذا القانون ، أو ما سماه القرآن الكريم ما بين (الخوف والرجاء) فــإذا كان هناك إنسان يُطارد ليُمسك من عدوه فإنه يتحرك ويركض فيما إذا شعر بشعور واضح محدد هو **أولاً** : هنــاك أمل بالإفلات وهذا ما يعاكس اليأس . **ثانياً** : هناك خوف من أن يمسك وهذا ما يعاكس الاطمئنان ، وهكذا نــراه يتحرك ضمن هذا (المجال الحيوي النفسي) فإذا وصل إلى إحدى نقطتي (اليأس) أو (الاطمئنــان) توقفــت حركتــه والتمثيل القادم يمثل مجال الحركة :



وهذا ما عبر عنه القرآن **أولاً** في صدد اليأس آ ﴿ ... **إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾[1] [يوسف : ٧٨] ﴿ **قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾ [الحجر : ٥٦] **وثانياً** في صدد الاطمئنان ﴿ **إِنَّ الَّــذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۞ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [يونس : ٧-٨]

﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُــحًى وَهُــمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٩]

نرجع الآن إلى البحث الأساسي فنقول لذا كان لا بد من خروج الجنين إلى الحياة أن يحدث تقلــص منــتظم ذو توتر معين يبقى في حدوده لا ينقص ويركد فتحدث عطالة الرحم ، ولا يزيد فتحدث حالة تكزز أو انقباض الرحم ، وبين هذا وذلك يخرج الجنين إلى الحياة ضمن هذا (المجال الحيوي) .

والعمل الإسلامي لا يعيش بدون محنة ، ولا ينمو بدون محنة لكن مع ذلك قد يموت إذا اشتدت المحنة فوق الطاقة الإنسانية ، وبالتالي يتحطم العمل وينسحق ولعل في حديث رسول الله ﷺ إشارة إلى هذا المعنى :

« **أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ** » رواه البخاري .

فقوانين المادة هي غير قوانين الحياة المعقدة ، فقانون المادة مثلاً يعني العلاقة ما بين الحجم والضغط علاقة عكسية فكلما زاد الضغط نقص الحجم ، ولكن القانون يمشي جزئياً في عالم الحياة فالمحنة تزيد من تماسك الفـــرد النفـــسي . وتقوي وتشحذ عزيمته كما أن الترف النفسي يفسده :

﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء : ١٦]

وكذلك فإن المحنة تزيد من تماسك الجماعة وكثرة ارتصاص صفوفها ولكنها إذا قفزت عن حد الطاقة الإنـــسانية فإن زيادة الضغط يعني انفجار الكيان الإنساني يظهر بأجلى صوره في مظهر الانهيار العصبي وحتى الجنون !!

أو لنقل تفتت كيان الجماعة المجاهدة ..

وهكذا نقول لا بد من محنة ولكن على أن تبقى في حدود التوتر المناسب الذي يكافئ الطاقة الإنسانية وينميها ، ومن خلال هذه النظرة كم نصل إلى درجة عميقة من الأسى حينما نقوم بمقارنة يسيرة بين ما يحدث في بلد وبلد من العالم الإسلامي حيث نرى المحنة إما في صورة (تكزز) أو في صورة (عطالة) ، الأولى تقوم أشبه بعملية تحطيم للعمـــل الإسلامي والصورة الأخرى لا تحرك طاقته .

نظرة في بعض الكتب التي صدرت تعرض فظائع التعذيب أو أجواء المحنة :

صدر العديد من الكتب في ظروف المحنة من أمثال أقسمت أن أروي لروكس معكرون ، البوابة السوداء ، حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون ، مسرحية التحقيق .. إلخ ..

وهذه الكتابة بوجه عام جيدة لأنها في اتجاه كتابة التاريخ ولعلها أن تكون مرحلة أيضاً لمرحلة أكثر تقدميـــة لمـــا بعدها وهي المراجعة والتقويم وليس مجرد ذكر التاريخ وتنـــزيه الذات .

وهنا أفكار في بحث الضربات التي وجهت للعمل الإسلامي في المنطقة ..

أولاً : يجب أن نتوقع من أعداء الحركة الإسلامية كل شيء فهم خصوم هذا الدين ولا يرقبون في مــؤمن إلاً ولا ذمة ، ولذا فمجال البحث فيما يتعلق بهم يكون ليس بتوقع أن يخففوا هجمتهم بل بفهم ما يدبرون وإحباط هــذا – ومن قِبلنا– يفنيه ..

ثانياً : الآلام التي حدثت شيء مؤسف ولا شك ولكن ليس لها أي معنى إذا لم تربط بمقدمات ونتائج الــصراع الذي دار ، لماذا دار ؟ ، كيف دار ؟ ، ما هي النتائج التي خلص إليها ؟ ، لأن المحنة ليست متعة ولــذة ، بــل هــي ممارسة شاقة ، وشواظ من نار من أجل تمييز الخبيث من الطيب تماماً كما تصفية الذهب

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَــاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧]

ثالثاً : يجب أن يفصل وبشكل جوهري بين ممارسة قاسية لفكرة ، وبين صحة هذه الممارسة فنار المحنة هي شهادة صدق المكافح في سبيلها ومدى تعلقه بها ولكن إصراره على التعلق لا يعني أنه قد تعلق بالهدف الصحيح ، نعــم إنّ نيته تشفع له ولكن قد يكون متعلقاً في الحقيقة بشيء آخر وهمي فالفكرة الــشيوعية مــات في ســبيلها الكــثيرون والإسلاميون لا يرون أن العقيدة الشيوعية صحيحة كما أن اليابانيين انتحروا من أجــل الميكــادوا علــى طريقــة الهاريكاري العجيبة ومن أجل الشمس المشرقة والتاريخ البشري أبرز نماذج متنوعة لإخلاص أصحاب الدعوات أيــاً كانوا ، والسر في هذا أن القلب البشري بالأصل وعاء يدخل فيه أي فكر فإذا تمكن واسترســخ دفــع صــاحبه إلى الاستنفار في سبيله .

رابعاً : دخول الصراع يحتاج لشروط فنية وإذا حدثت محنة ومعصرة فيجب أن ينظر للتفريق بين أمرين ويطرح في صيغة السؤال التالي : هل ما حدث ابتلاء من الله أو خطأ منا ، وتفريق هذا أمر على غاية من الدقة ، فمعركة أحــد حقاً كانت ابتلاء ولكن منبعها كان خطأ **﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ... ﴾** [آل عمران : ١٦٥] ولذا يجب أن لا يكرر . في حين الاستهزاء والسخرية والتكذيب بالدعوة ابــتلاء والإنسان يقابل الأمر الأول بالتصحيح والانتباه لعدم تكراره في حين يبقى في الأمر الثاني ماضياً في طريقــه متابعــاً دعوته .

ولما تعرض فظائع التعذيب التي تمت ومطاردات العمل الإسلامي يجب أن ينظر إلى المواضيع على أســاس هــل بالإمكان كان أن يحدث غير ما حدث مثلاً تقصير فترة المحنة ، أو تخفيف شدتها ، أو شــكلها .. وهــل الأخطــاء

تدخلت فحصل ما حصل ، وحتى تفهم طبائع الأشياء يجب أن يطرح السؤال الحرج وهو هل حدث ما حدث بفعل (غبائنا) أم (ذكائهم) ..

خامساً : إنّ محنة العمل الإسلامي يجب أن ينظر إلى نتاجه وهل كانت المحنة تنمية للعمل أو إجهاض وإيقاف له ، ولما تنشر فظائع التعذيب فإن ردود ذلك قد يكون سلبياً وهو مجرد عرض مناظر بشعة وهذا لا معنى له مطلقاً مـــا لم يكن عرض مكرر ومركز ويربط بين العذاب للفكرة وجلاء الفكرة كما كان في تعذيب الصحابة رضوان الله عليهم.

ثم إنّ النظام حريص على أن لا ينتشر العمل الإسلامي وهو يريد إرعاب إنسان المنطقة فلما تنتشر أمثـــال هـــذه الكتب كأنها بتعبير غير مباشر لإرادة النظام ، والكارثة أن إرادتنا وبغير وعي تنفذ إرادته ، فهو يريد قطـــع صـــلتك بالأمة ، وبهذا العرض تصبح هذه المناظر هي استقبالات العمل الإسلامي ، وآلام الطريق هي ختام وتكليل لوضـــوح فكرة في الرأس ، فالإنسان يتحمل العذاب من أجل شيء آمن به وأحبه ، أما من أول الطريق فالانطباعات القاســـية مكسرة وغير منمية للنفس . والأخ عبد الحليم خفاجي كان نتاجاً إيجابياً للمحنة حيث تجاوزت النفس ردود الفعـــل مع الكراهية والفشل والحقد إلى التفاعل الخصب الإيجابي مع فكر الدعوة ..

---

(١) يجب أن يفرق بين اليأس من روح الله وهو ما يبقى الأنبياء والمصلحون ثابتين على خلافه ، وبين اليأس مـــن الناس وعدم استجابتهم كما هو في سورة يوسف ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** ... ﴾ [يوسف : ١١٠] فاليأس هنا من الناس وعدم استجابتهم وتكذيبهم المستمر .